٤٨ ابن الحاجب
فقيه أثبت حيوية اللغة العربية

حياة كل لغة تتلخص فى أمرين: ماض له احترامه وقداسته، وحاضر له حاجاته ومتطلباته. وإذا وقفت اللغة عند الماضى وحده كتب عليها الجمود والركود، وإذا شغلت بالحاضر فحسب، فَفَدَتْ أخص خصائصها من الاطراد والاستقراء وأصبحت وليدة الهوى والمصادفة، وأدت إلى كثير من البلبلة.

ولغتنا العربية فى كل زمان يعتد أبناؤها بماضيها وحاضرها فيتباهون بتراثها الخالد، ويحرصون فى الوقت نفسه على تنميته وتغذيته حتى يواكب الزمن. حتى أصبحت هذه اللغة على أيدى أبنائها المخلصين تمقت الجمود، وتأبى الطفرة، وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه الحاجة. مبدؤها فى ذلك مبدأ إسلامى خالص، وهو: لاإفراط ولا تفريط.

ومن بين أبناء اللغة العربية المخلصين لها «ابن الحاجب» جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس عالم اللغة فى القرن السابع الهجرى. حيث كانت كتاباته ترى أن للغة ماضياً وحاضراً ومستقبل.

فماضيها تراث أدبى من نثر وشعر، وتراث فكرى من علم ودين وفلسفة. وعلى أبناء هذه اللغة مراعاة هذا التراث وتعهده، وتوجيه النظر إليه، والدعوة إلى إحيائه.. والأهم استخلاص ما يلائم الزمن ويتمشى معه من هذا التراث. وحاضرها عمل دائم على تطورها، ومستقبلها أمل فى تقدمها حتى تواكب متغيرات المستقبل.

وعلى الرغم من أن ابن الحاجب يقرر أن اللغة العربية لغة حية معبرة فإنه فى الوقت نفسه يرى أن فى الماضى اللغوى عصور ضعف، وعصور قوة، عصور

ركود وعصور ازدهار. وتساءل: هل ينبغى علينا نحن أبناء هذه اللغة الوقوف عند القرنين الثانى والثالث للهجرة أم نتجاوزهما؟ وانتهى إلى القول بأنه ينبغى ألا نقف، بل علينا فى الإجتهاد، ذلك لأن اللغة العربية وهى لغة القرآن الكريم - تتطلب منا الاجتهاد حتى تواكب الزمن الذى توجد فيه.

وأما حاضر اللغة كما يراه ابن الحاجب فهو ما تعيشه من مستحدثات، وما تواجه من مشكلات، وما تضطلع به من الأعباء، وما تعبر عنه من الأمور.. حاضر اللغة بإختصار هى الحياة فى شتى مظاهرها.

والحق أن هذه الرؤية لابن الحاجب، المأخوذة من كتاباته - بتصرف - رؤية متقدمة على زمانه. لعلها تتفق مع أقوال علماء اللغة فى بداية القرن الخامس الهجرى، حيث يرون أن اللغة العربية تمتاز بين اللغات العالمية الكبرى بأنها فى آن واحد قديمة وحديثة عاصرت من اللغات القديمة اليونانية واللاتينية غرباً، والسنسكريتية والبهلوية شرقا، وعمرت بمرونتها واشتقاقها استطاعت أن تيسر فى الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى، وأن تؤدى وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة، مما يشعرنا بأناً نملك حقاً لغة نستطيع أن نتصرف فيها، كما كان يملكها قديماً أبناء العروبة فى الجاهلية والإسلام، ويستخدمونها على حسب ما تقضى به حياتهم وظروفهم.

ونعود إلى ابن الحاجب هذا العالم النحوى المجدد لنتعرف عليه وعلى بعض أعماله، فنجده مصرياً، ولد بصعيد مصر، وبالتحديد فى «إسنا»، فى الأيام الأخيرة من عام ٥٧٠ هـ. حيث كان أبوه حاجباً لأمير الكردى عز الدين موسك الصلاحى.

حفظ القرآن فى القاهرة، ودرس العلوم المتصلة به كالفقه وأصوله على مذهب الإمام مالك، إلى جانب دراسته المستفيضة للنحو والأدب، شعره ونثره. وكان أهمّ شيوخه الإمامُ الشاطبى، والفقيه أبو منصور الأبيارى وغيرهما.

رحل من مصر إلى دمشق، وقضى بها مدة طويلة يلقى دروسه على الناس فى الزاوية المالكية بالجامع الأموى، وكان له طلابٌ وعمود ينتسب إليه فى هذا الجامع العتيق. ثم عاد إلى القاهرة ليلقى دروسه فى الفقه وأصوله بمساجدها، وأخيرا ينتقل إلى الإسكندرية، ويظل بها حتى وفاته فى ٢٦ شوال من عام ٦٤٦ هجرية.

وأعمال ابن الحاجب أغلبها فى الفقه والنحو والعروض. إلا أنه اشتهر بالنحو بوجه خاص، وهو فى هذا الميدان ـ بالذات ـ يختلف من عدة وجوه عن أسلافه، كما كان أول فقيه جمع بين عقائد المالكية فى مصر، وعقائدها فى المغرب. ومؤلفاته واضحة الأسلوب لا تحتاج إلى تفسير. ولعل منها ما يدرس حتى الآن بالأزهر الشريف. من هذه المؤلفات.

ألكافية: وهو كتيب فى النحو العربى يُعَدّ من الأصول فى هذا العلم، وقد طبع عدة مرات بالقاهرة، وشرح بالآستانة:

الشافية: وهو كتيب آخر فى علم الصرف، يرجع إليه كل دارس أو باحث فى هذا العلم. طبع عام ١٨٠٥، وبالآستانة عام ١٨٥٠، ونشر فى ليبسك عام ١٨٧٨م.

«المقصد الجليل فى علم الخليل»: وهو منظومة شعرية من بحر البسيط فى العروض، تعين الباحث فى أصول هذا العلم.

«الأمالى»: وهى فصول عن القرآن الكريم وتركيباته اللغوية العظيمة. ومختارات من شعر أبى الطيب المتنبى.

«القصيدة الموشحة بالأسماء المؤنثة»: وعنوانها يدل على مضمونها الذى يهتم بالأسماء المؤنثة فى اللغة.

«رسالة فى العُشر»: وهو بحث صغير فى استعمال كلمة «عشر» ـ بضم العين وتسكين الشين ـ مع الصفتين «أول» و «آخر».

«منتهى السؤال والأمل فى علمى الأصول والجدل»: وهو بحث مهم فى أصول مذهب الإمام مالك، يوضح دعائم وأسس هذا المذهب، والإختلاف بينها وبين المذاهب الأخرى.

«مختصر المنتهى»: ويعرف بالمختصر الأصولى، وهو موجز للكتاب السابق مع شرح لعضد الدين الأبجى، وحواش للتفتازانى، والجرجانى. وقد علَّق على حاشية الجرجانى الحسنُ الهروى.

«مختصر فى الفروع» أو «جامع الأمهات»: ويعرف بالمختصر الفرعى. وهو موجز فى الفقه المالكى مع التوضيح.. وقد قلَّدَ هذا الكتاب مؤلفون كثيرون وغيرها من الأعمال الجادة.

* * *